ولذلك ترك هود عليه السلام الأجر لمن يقدر عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى . فهو القادر على كل شيء.

وقد أوضحنا من قبل أن كل مواكب الرسل جاءت بهذه العبارة [1] :

﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [هود]

إلا إبراهيم وموسى عليهما السلام ؛ فسيدنا إبراهيم لم يَقُلْها بسبب أبيه ، وسيدنا موسى لم يقلها [2] ؛ لأن فرعون قال له :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]

إذن : كان يجب على قوم هود أن يعقلوا الفائدة الجمَّة ، وهى المنهج الرِّسالى الذى جاء به هود عليه السلام.

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام مخاطباً قومه :

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا [3] وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

---

(١) قالها نوح عليه السلام : [سورة يونس، آية ٧٢] ، [سورة هود ، آية ٢٩] ، [السعراء ، آية ١٠٩]. وقالها هود عليه السلام : [هود : ٥١] ، [الشعراء : ١٢٧] . وقالها صالح عليه السلام لقومه ثمود : [الشعراء : ١٤٥] وقالها لوط عليه السلام : [الشعراء : ١٦٤] . وقالها شعيب [الشعراء : ١٨٠].

(٢) وذلك أن فرعون من على موسى عليه السلام بهذا عند طلبه خروج بنى إسرائيل معه ، فقال فرعون : ﴿ .. أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الشعراء] فلا يتأتى لموسى بعد هذا أن يقول ما قاله إخوانه من الرسل.

(٣) مدراراً : صيغة مبالغة، أى : كثير غزير متتابع. وقال الله سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا .. ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام] أى تدر عليهم مطراً غزيراً . [القاموس القويم] . وقد وردت كلمة (مدراراً) فى القرآن الكريم ثلاث مرات : فى الآية السادسة من سورة الأنعام ، وفى الآية الثانية والخمسين من سورة هود، وفى الآية الحادية عشرة من سورة نوح.

وهكذا نعلم أن الاستغفار هو إقرار بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول : يا رب اغفر لنا .

وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى ، فهذا إعلان منك بالإيمان ، واعتراف بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق .

وما دام الإنســان قد طلب من الله تعالى أن يغفر له الذى فـات من ذنوب ، فعليه ألا يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنب المعاصى .

وعلى الإنسان أن يتذكّر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأن الكائنات المسخرة هى مسخرة بأمر الله تعالى ؛ فلا تنسيك رتابة [1] الحياة عن مسببها الواهب لكل النعم .

والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً ، فأول ما ينزل به الرسول إلى الأمة هو أن يصحّح العقيدة فى قمتها ، ويدعوهم إلى الإيمان بإله واحد يتلقَّون عنه «افعل» و«لا تفعل» .

وهنا يكون الكلام من هود عليه السلام إلى قومه «قوم عاد» ، والدعوة إلى الإيمان بإله واحد وعبادته ، والأخذ بمنهجه لا يمكن أن يقتصر على الطقوس فقط من الشهادة بوحدانية الله تعالى ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج .

ولكن عبادة الله تعالى هى أن تؤدّى الشعائر والعبادات ، وتتقن كل عمل فى ضوء منهج الله ، فلا تعزل الدين عن حركة الحياة .

والذين يخافون من دخول الإسلام فى حركة الحياة ، يريدون منّا أن نقصر الدين على الطقوس ، ونقول لهم : إن الإسلام حينما دخل فى حركة الحياة غـزا الدنيـا كلها ، وحارب حضارتين عريقتين ؛ حضارة الفرس فى الشرق ، وحضارة الرومان فى الغرب .

---

(١) رتابة الحياة : أي : سيرها على نظام واحد ، لا يتخلف ، فيبدو لك أنه يسير بنفسه وبذاته وتنسى مُسيّره ومُسبّبه . قال في اللسان (مادة : رتب) : «الراتب : الثابت الدائم . والرتَب : الشيء المقيم الثابت» .

وهؤلاء كانوا أمماً لها حضارات قديمة وقوية ، وثقافات وقوانين ، ومع ذلك جاء قوم من البدو الأميين ؛ يقود عقيدتهم رجلٌ أميٌّ (١) أرسله الله سبحانه وتعالى ؛ فيطيح بكل هؤلاء ؛ نظماً وثقافات وارتقاءات بمستوى الحياة إلى مستوى طموح العقول.

يريد هؤلاء - إذن - أن يقوقعوا الإسلام فى الأركان الخمسة فقط ؛ ليعزلوه عن حركة الحياة .

ونقول لهم: لا ، لا يمكنكم أن تقصروا العبادات على الأركان الخمسة فقط ؛ لأن العبادة معناها أن يوجد عابد لمعبود حقٍّ ، وأن يطيع العابد أوامر المعبود ؛ وتتمثَّل أوامر المعبود فى «افعل» و «لا تفعل» ؛ وما لم يَرِدْ فيه «افعل» و «لا تفعل» ؛ فهو مباح ؛ إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعَله ؛ وبفعله أو عدم فعله لا يفسد الكون.

إذن: فالعبادة هى كل أمر صادر من الله تعالى ؛ فلا تعزلوها فى الطقوس ؛ لأن رسول الله ﷺ أبلغنا ؛ وأوضح لنا أن أركان الإسلام الخمس هى التى بنى عليها الإسلام ؛ وليست هى كل الإسلام (٢).

إذن: فالإسلام بناء يقوم على أركان ؛ لذلك لا يمكن أن نحصر الإسلام فى أركانه فقط ؛ فالإسلام هو كل حركة فى الحياة ، ولا بد أن

---

(١) هو رسول الله محمد ﷺ ، وأمية رسول الله ﷺ أمر أكد عليه رب العزة فى القرآن، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ..(١٥٧)﴾ [الأعراف].
الأمى نسبة إلى الأم ، كأنه باق على حالته التى وُلد عليها مفطوراً بفطرة الله بالتلقى عنه إلهاماً ووحياً ، فما نطق عن هوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم] وهذا الوصف من خصوصيات النبى ، وهى تشريف له ، لأنه إذا كان أمياً وأنزل الله عليه الكتاب المعجز ، فلا شك أنه من عند الله والأمية دليل على أن علمه من الله مباشرة ، وليس من البشر ، ولو لم يكن أمياً لقيل أنه قرأ ونقل عن غيره . «من أقوال الشيخ الشعراوى» م. س

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان» أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦).

تنتظم حركات البشر تبعاً لمنهج الله ، لتنتظم الحياة كما انتظم الكون من حول!

فالعبادة تستوعب كل حركة فى الحياة ، وقد فهم البعض خطأ أن العبادة تنحصر فى باب العبادات فى تقسيم الفقهاء ، وأغفلوا أن باب المعاملات هو من العبادة أيضاً ، واستقامة الناس فى المعاملات تؤدى إلى انتظام حياة الناس .

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ .. (٥٢) ﴾ [هود]

والاستغفار (١) لا يكون إلا عن ذنوب سبقت ؛ وإذا كان هذا هو أول ما قاله هود عليه السلام لقومه ؛ إذن : فالاستغفار هنا عن الذنوب التى ارتكبوها مخالفة لمنهج الرسول الذى جاء من قبله ، أو هى الذنوب التى ارتكبوها بالفطرة .

ثم يدعوهم بقوله : ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .. (٥٢) ﴾ [هود]

والتوبة تقتضى العزم على ألا تُنشئوا ذنوباً جديدة .

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ .. (٥٢) ﴾ [هود]

ولقائل أن يقول : وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونية ؟

ونقول : إن للكون مالكاً لكلِّ ما فيه ؛ جماده ونباته وحيوانه ؛ وهو سبحانه قادر ، ولا يقدر كائن أن يعصى له أمراً ؛ وهو القادر أن يخرج الأشياء عن طبيعتها ؛ فإذا جاءت غيمة وتحسب أنها ممطرة ؛ قد يأمرها الحق سبحانه فلا تمطر .

---

(١) غفر الذنب يغفره - كضرب - غفرا وغُفرانا ومغفرة . ستره وعفا عنه ولم يعاقب فاعله ، قال تعالى : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ .. (٥٨) ﴾ [البقرة] والغافر : اسم فاعل وغفور وغفار : صيغتان للمبالغة وكلها من أسماء الله الحسنى ، وغفران مصدر ، والمغفرة مصدر ميمى ، واستغفر طلب الغفران لنفسه ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ .. (٦٤) ﴾ [النساء] طلب من الله أن يغفر لهم . [القاموس القويم باختصار]

مثلما قال سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ [١] عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ [٢] رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف]

إذن : فلا تأخذ الأسباب على أنها رتابة ؛ وإنما ربُّ الأسباب يملكها ؛ فإن شاء فعل ما يشاء .

وإذا ما عبدتَ الله تعالى العبادة التى تنتظم بها كل حركة فى الحياة ؛ فأنت تُقبل على عمارة الأرض ؛ وتوفِّر لنفسك القُوْتَ [٣] باستنباطه من الأسباب التى طمرها [٤] الله سبحانه وتعالى فى الأرض .

والقوت - كما نعلم - من جنس الأرض ؛ لذلك لا بد أن نزرع الأرض ؛ وتَمُدَّ البذور جذورها الضارعة المسبِّحة الساجدة لله تعالى ؛ فيُمطر الحقُّ سبحانه السماءَ ؛ فتأخذ البذور حاجتها من الماء المتسرِّب إليها عبر الأرض ؛ ونأخذ نحن أيضاً حاجتنا من هذا الماء .

---

(١) أى : لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض مطر ففرحوا واستبشروا به ، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر . (تفسير ابن كثير ٤/ ١٦٠) .

(٢) وذلك أنهم قالوا لرسولهم هود عليه السلام : ﴿ .. فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف] .

(٣) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته ، وجمعه «أقوات» . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠) ﴾ [فصلت] أى : أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر . وأقات النبات أو الحيوان : أمدَّه بقُوته الذى يحفظ حياته . وأقات عليه : حفظه وحفظ بقاءه . قال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (٨٥) ﴾ [النساء] أى : غالباً مقتدراً ، أو حافظاً واقياً حياته . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) طمرها : دفنها وأودعها وخبأها فى باطن الأرض . والمطمورة : حفيرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هُيىء خفيّا يطمر فيه الطعام والمال . أى : يخبأ . [لسان العرب - مادة : طمر] .

والسماء هي كل ما عَلاكَ فأظلَّكَ[1] ؛ أما السماء العليا فهذا موضوع آخر ، وكل الأشياء دونها.

وانظروا قول الحق سبحانه:

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) ﴾ [الحج]

أي: من كان يظن أن الله تعالى لن ينصر رسوله فليأت بحبل أو أي شيء ويربطه فيما علاه ويعلِّق نفسه فيه ؛ ولسوف يموت، وغيظه لن يرحل عنه.

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا .. (٥٢) ﴾ [هود]

والمدرار: هو الذي يُدرُّ بتتابع لا ضرر فيه ؛ لأن المطر قد يهطل بطغيان ضارٍّ ، كما فتح الله سبحانه أبواب السماء بماء منهمر.

إذن: المدرار هو المطر الذي يتوالى توالياً مُصلحاً لا مُفسداً.

ولذلك كان ﷺ يقول حين ينزل المطر: «اللهم حوالينا ولا علينا»[2].

ومتى أرسل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً ؛ فالأرض تخضرُّ ؛ وتعمر الدنيا ؛ ونزداد قوة إلى قوتنا.

---

(١) قال الزجاج: السماء في اللغة: يقال لكل ما ارتفع وعلا: قد سما يسمو. وكل سقف فهو سماء. والسماء: كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت سماء. [اللسان: مادة سمو].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٩٧) ، والبخاري في صحيحه (٩٣٣) ، فعن أنس بن مالك قال: أصابت الناس سنة على عهد النبي ﷺ فبينا النبي ﷺ يخطب في يوم جمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا. فرفع يديه - وما نرى في السماء قزعة - فو الذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ ، فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد وبعد الغد، والذي يليه حتى الجمعة الأخرى ، وقام ذلك الأعرابي فقال: يا رسول الله تهدَّم البناء، وغرق المال ؛ فادع الله لنا، فرفع يديه فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا».

أما مَنْ يتولَّى [1] ؛ فهو يُجرم فى حقّ نفسه ؛ لأن إجرام العبد إنما يعود على نفسه ؛ فلا تظنّ أن إجرام أىّ عبدٍ بالمعصية يؤذى غيره [2] .

والحق سبحانه يقول :

﴿ .. ولَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس]

ويأتى الحق سبحانه من بعد ذلك بالردّ الذى قاله قوم عاد :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ [3] وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

وهم هنا ينكرون أن هوداً قد أتاهم ببيِّنة أو مُعجزة .

والبيِّنة - كما نعلم - هى الأمارة الدالة على صدق الرسول .

وصحيح أن هوداً هنا لم يذكر معجزته ؛ وتناسوا أن جوهر أى معجزة هو التحدى ؛ فمعجزة نوح عليه السلام هى الطوفان ، ومعجزة إبراهيم عليه السلام أن النار صارت برداً [4] وسلاماً عليه حين ألقوه فيها .

ونحن نلحظ أن المعجزة العامة لكل رسول يمثلها قول نوح عليه السلام :

---

(١) يتولى : يُعرض . والتولِّى : الإعراض والإدبار . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [آل عمران] .

(٢) والحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [النساء] والإثم : الذنب ، وعاقبته إنما تعود على نفسه .

(٣) بينة : أى : دليل وبرهان وحجة واضحة لا شك فيها . وقال تعالى : ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. ﴿٢١١﴾ ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ .. حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ ﴾ [البينة] . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) البرد : ضد الحر . قال بعض العلماء : جعل الله فى النار برداً يرفع حرها ، وحراً يرفع بردها ، فصارت سلاماً عليه . قال أبو العالية : ولو لم يقل «برداً وسلاماً» لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل «على إبراهيم» لكان بردها باقياً على الأبد . انظر تفسير القرطبى (٦/ ٤٤٨٢) .

﴿ .. يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى [١] وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً [٢] ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) ﴾ [يونس]

أى: إن كنتم أهلاً للتحدى، فها أنا ذا أمامكم أحارب الفساد، وأنتم أهل سيطرة وقوة وجبروت وطغيان.

وأحكموا كيدكم؛ لكنكم لن تستطيعوا قتل المنهج الربانى؛ لأن أحداً لن يستطيعَ إطفاء نور الله فى يد رسول من رسله؛ أو أن يخلِّصوا الدنيا منه بقتله.. ما حدث هذا أبداً.

إذن: فالبيِّنة [٣] التى جاء بها هود عليه السلام أنه وقف أمامهم ودعاهم إلى ترك الكفر؛ وهو تحدى القادرين عليه؛ لأنهم أهل طغيان؛ وأهل بطش؛ ومع ذلك لم يقدروا عليه؛ مثلما لم يقدر كفار قريش على رسولنا ﷺ.

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ قد جاء ومعه المعجزة الجامعة الشاملة وهى القرآن الكريم؛ وسيظل القرآن معجزة إلى أن تقوم الساعة.

ونعلم أن غالبية الرسل - عليهم جميعاً السلام - قد جاءوا بمعجزات حسية كونية؛ انتهى أمدها بوقوعها، ولولا أن القرآن يخبرنا بها ما صدَّقناها، مثلها مثل عود الثقاب يشتعل مرة ثم ينطفىء.

(١) مقامى (بضم الميم): أى: إقامتى بينكم. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا .. (١٣)﴾ [الأحزاب] أى: لا إقامة لكم. راجع تفسير ابن كثير.

(٢) الغمة: التباس الأمر وعدم وضوحه. وقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .. (٥٧)﴾ [البقرة]. [القاموس القويم].

(٣) أبان الشىء يبين بياناً أى: ظهر واتضح، فهو بين، وهى بينة أى ظاهر وظاهرة، ويستعمل البين والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة، وبالمعنيين يفسر قوله تعالى: ﴿كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١)﴾ [البقرة] أى واضحة لا شك فيها، والبينة الحجة والبرهان يقول الحق: ﴿ .. حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ .. (٢)﴾ [البينة] وتبين الأمر: وضح وظهر. (القاموس القويم)

فمثلاً شفى عيسى - عليه السلام - الأكمه [1] والأبرص [2] - بإذن ربه - فمَنْ رآه آمن به ، ومَنْ لم يَرَهُ قد لا يؤمن ، وكذلك موسى - عليه السلام - ضرب البحر بالعصا فانفلق أمامه ؛ ومن رآه آمن به ، وانتهت تلك المعجزات ؛ لكن القرآن الكريم باقٍ إلى أن تقوم الساعة .

ويستطيع أي واحد من أمة محمد ﷺ قبل قيام الساعة أن يقول : محمد رسول الله ومعجزته القرآن ؛ لأن محمداً ﷺ جاء رسولاً عامًا ؛ ولا رسول من بعده ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته من الجنس الباقي ؛ ومع ذلك قالوا له :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا [3] (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [4] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا [5] (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وكل ما طلبوه مسائل حسية ؛ لذلك يأتي الرد :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .. (٥١) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) كمه يكمه كمهاً ، فهو أكمه : وُلدَ أعمى ، أو فقد بصره فهو أكمه . قال تعالى : ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم] .

(٢) الأبرص : هو من أصابه داء البرص ، وهو مرض جلدي يُحدث بقعاً بيضاء في الجلد تشوّهه ، وهو من أعراض مرض الجذام . قال تعالى : ﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي .. (١١٠) ﴾ [المائدة] . [القاموس القويم] .

(٣) نبع الماء : خرج من العين . والينبوع : العين يخرج منها الماء غزيراً سهلاً . والجمع : ينابيع . قال تعالى : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [الزمر] . [القاموس القويم] .

(٤) كسفاً : قطعاً . والكسفة : القطعة . وقال تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا .. (٤٤) ﴾ [الطور] . وقال تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٩) ﴾ [سبأ] [القاموس القويم] .

(٥) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الأعوان المناصرون . قال تعالى : ﴿ .. أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) ﴾ [الإسراء] معك ليؤيدوك . [القاموس القويم] .

ومع ذلك كذَّبوا.

وأضاف قوم عاد :

﴿ . .وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود]

هم - إذن - قد خدعوا أنفسهم بتسميتهم لتلك الأصنام «آلهة» ؛ لأن الإله هو مَنْ يُنزل منهجاً يحدِّد من خلاله كيف يُعْبَد ؛ ولم تَقُل الأصنام لهم شيئاً ؛ ولم تُبلغهم منهجاً.

إذن : فالقياس المنطقى يُلغى تَصوُّر تلك الأصنام كآلهة ؛ فلماذا عبدوها ؟

لقد عبدوها ؛ لأن الفطرة تنادى كل إنسان بأن تكون له قوة مألوه لها ؛ والقوة المألوه لها إن كان لها أوامر تحدُّ من شهوات النفس ، فهذه الأوامر قد تكون صعبة على النفس ، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو نواهى فهذه آلهة مريحة لمن يخدع نفسه بها ، ويعبدها مظنة أنها تنفع أو تضر.

وهذه هى حُجَّة كل ادِّعاء نبوة أو ادِّعاء مَهديَّة [(١)] فى هذا العصر ، فيدَّعى النبىُّ الكاذب النبوَّة ، ويدعو للاختلاط مع النساء ، وشرب الخمر ، وارتكاب الموبقات [(٢)] ، ويسمِّى ذلك ديناً.

وتجد مثل هذه الدَّعاوَى فى البهائية [(٣)] والقاديانية [(٤)] ؛ وغيرها من المعتقدات الزائفة.

---

(١) المقصود هؤلاء الذين يدَّعون أنهم المهدى المنتظر الذى جاء ذكره فى أحاديث رواها البخارى فى صحيحه ، أنه يأتى فى آخر الزمان ، ويكون معاصراً لنزول عيسى بن مريم.

(٢) الموبقات : المهلكات . أوبقه : أهلكه . وقال تعالى : ﴿ . . وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) ﴾ [الكهف] أى : جعلنا تواصلهم فى الدنيا موبقاً ، أى : مهلكاً لهم فى الآخرة . [لسان العرب - مادة : وبق].

(٣) البهائية : طائفة ذات عقائد فاسدة ، تنسب لـ «الميرزا حسين على المازندرانى» تربَّى بطهران ، ولد عام ١٢٣٣ هـ ، أفكاره خليط من البوذية والمزدكية واليهودية والإسلام والمسيحية . انظر : حقيقة البابية والبهائية - د. محسن عبد الحميد ١٩٨٥ م.

(٤) القاديانية : تُنسب لمرزا غلام أحمد من قاديان بلاهور من إقليم البنجاب بين الباكستان والهند ، ولد ١٢٥٢ هـ ، وادَّعى النبوة . (القاديانية ، نشأتها وتطورها ، د. حسن عيسى - دار القلم / الكويت ١٩٨١ م).

وقولهم :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ..(٥٣) ﴾ [هود]

يعنى : وما نحن بتاركى آلهتنا بسبب قولك .

وقولهم : ﴿ .. وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود]

أى : وما نحن لك بمصدِّقين ، لأن (آمن) تأتى بمعانى متعددة [1] .

فإنْ عدَّيتها بنفسها مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وإنْ عدَّيتها بحرف «الباء» مثل قول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ .. (٦٢) ﴾ [البقرة]

فالمعنى يتعلَّق باعتقاد الألوهية .

وإن عدَّيتها بحرف «اللام» ؛ مثل قول الحق سبحانه :

---

(١) أمن يأمن : اطمأن ولم يخف . وأمن منه : سلم . وأمن على كذا : اطمأن إليه ووثق به . كقوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ .. (٦٤) ﴾ [يوسف] .

وآمن : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا ..(٣٥) ﴾ [إبراهيم] . أى : يأمن من يحل به .

وآمنه من خوف : جعله آمناً غير خائف . ومعانى المادة كلها ترجع إلى الثقة والاطمئنان . قال تعالى : ﴿ .. وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] أى : جعلهم آمنين لا يخافون ؛ لأنهم جيران الحرم الآمن فى البلد الآمن .

والمؤمن : من أسماء الله الحسنى ، أى : واهب الأمن وباعث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ؛ فلا خوف لمن يلجأ إليه سبحانه . قال تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ .. (٢٣) ﴾ [الحشر] .

وآمن له : أذعن وخضع عن ثقة وحب وتقدير . قال تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ..(٢٦) ﴾ [العنكبوت] .

وآمن به : صدَّق به ووثق به عن اقتناع . قال تعالى : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) ﴾ [يس] .

والإيمان : الإذعان والتصديق . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .. (١٥٨) ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم] بتصرف .

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

تكون بمعنى التصديق.

يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾

و«إن» التى تُفتتح بها الآية الكريمة أداة شرطية، وأداة «إن» الشرطية يأتى بعدها جملة شرط، وجواب شرط، فإن لم تكن كذلك فهى تكون بمعنى النفى؛ مثل قول الحق سبحانه:

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ..(٢) ﴾ [المجادلة]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ[1] .. (٥٤) ﴾ [هود]

أى: «ما نقول إلا اعتراك».

وهكذا نعلم أن كلمة «إنْ» هنا جاءت بمعنى النفى.

و«إلا» هى أداة استثناء، وقبلها فعل هو «نقول»، وإذا وجدت أداة استثناء، ولم يذكر المستثنى منه صراحة، فاعلم أنه واحد من ثلاثة: إما أن يكون مصدر الفعل، وإما أن يكون ظرف الفعل، وإما أن يكون حال الفعل[2].

(١) عراه يعروه: ألمّ به أو غشيه وأصابه. قال تعالى: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ..(٥٤) ﴾ [هود] أى: أصابك. قال الفراء: كانوا كذّبوه - يعنى: هوداً عليه السلام - ثم جعلوه مختلطاً، وادعوا أن آلهتهم هى التى خبلته لعيبه إياها، قال الفراء: معناه: ما نقول إلا مَسَّك بعض أصنامنا بجنون لسبِّك إياها. [لسان العرب، والقاموس القويم].

(٢) يسمى النحاة هذا النوع من أساليب الاستثناء «الاستثناء المفرّغ» وهو ما حذف منه المستثنى منه، والكلام غير موجب (أى: منفى) مثل: ما تكلم إلا واحد. ويقول تعالى: ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا ..(٣٢) ﴾ [الجاثية] أى: ما نظن إلا ظنا عظيماً. انظر تفصيل ذلك فى النحو الوافى [٢/ ٣١٧ - ٣٣٧].

وعلى ذلك فمعنى الآية الكريمة :

وما نقول لك إلا أنَّ آلهتنا أصابتك بسوء ؛ لأنك سَفَّهتهم وأبْطَلتَ ألوهيّتهم ، وجئتَ بإله جديد من عندك ، فأصابتك الآلهة بسوء - يراد به الجنون - فأخذتَ تخلطُ فى الكلام الذى ليس له معنى.

ويردُّ عليهم هود عليه السلام بما جاء فى نفس الآية :

﴿ .. قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا (١) أَنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [هود]

وهو يُشهد الله الذى يثق أنه أرسله ، ويحمى ذاته ، ويحمى عقله ؛ لأن عقل الرسولَ هو الذى يدير كيفية أداء البلاغ عن الله.

والحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرسل رسولاً ولا يحميه.

وقد قال الكافرون عن سيدنا رسول الله محمد ﷺ أنه مجنون ؛ فأنزل الحق سبحانه وتعالى قوله الكريم :

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٢) (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

ونحن نعلم أن المجنون لا خُلُق له ، وفى هذا بيان أن رسول الله ﷺ فى قمة العقل ؛ لأنه فى قمة الخُلُق الطيِّب.

وهنا يُشهد هود عليه السلام قومه ويطالبهم أن يرجعوا إلى الفطرة السليمة ، ويحكموا : أهو مجنون أم لا ، ويشهدهم أيضاً أنه برىء من تلك الآلهة التى يُشركون بعبادتها من دون الله تعالى.

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام :

---

(١) طلبه للشهادة هنا ليس لأنهم أهل للشهادة ، ولكن المعنى : وأشهدكم نهاية للتقرير ، أى : لتعرفوا أننى برىء من عبادة الأصنام التى تعبدونها . انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٣٧٠).

(٢) غير ممنون : أى : غير مقطوع ، بل هو دائم ، ويحتمل أنه غير مكدَّر بالمنِّ والتقريع والفخر به . والمعنيان لا يتعارضان [القاموس القويم ٢/ ٢٤٠].

﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي[1] جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾

وقوله : ﴿من دونه﴾ أى : من دون الله ، فهم قد عبدوا أصناماً من دون الله سبحانه ، ومطلب هود عليه السلام منهم أن يكيدوا له جميعاً ، وهم كثرة طاغية ، وهو فرد واحد ؛ وإن كادت الكثرة المتجبِّرة لواحد ، فمن المتوقع أن يغلبوه ، وهو - عليه السلام - هنا يتحداهم ويطلب منهم أن يعملوا كل مكرهم وكيدهم ، وأن يقتلوه لو استطاعوا ، وهذه قمة التحدى .

والتحدى هنا معجزة ؛ لأنه ساعة يتحداهم فهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى ينصره ، وهو - عليه السلام - متأكد من قوله :

﴿أُشْهِدُ اللَّهَ ..﴿٥٤﴾﴾ [هود]

الذى قاله فى الآية السابقة ، ولا يمكن أن يرمى مثل هذا التحدى جزافاً ؛ لأن الإنسان لا يجازف بحياته فى كلمة .

وهو لم يَقُلْ : ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ إلا إذا كان قد آوى إلى ركن شديد ، وإنه ينطق بالكلمة عن إيمان بأن الحق سبحانه سيهبه قدرة على نفاذ الكلمة .

وهو قد أشهد الله تعالى ، والله سبحانه هو أول من شهد لنفسه ؛ يقول الحق سبحانه :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ..﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]

---

(١) كان فلاناً مكيده كيداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به ، والكيد من الله تعالى هو إبطال كيد الكافرين ، ومعاقبتهم على ما دبروه من كيد ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق] ، والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد يقول الحق : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ..﴿٦٤﴾﴾ [طه] (القاموس القويم بتصرف)

وكذلك شهدت الملائكة وأولو العلم [(١)]، والله سبحانه وتعالى حين شهد لنفسه فإنما يطمئننا أنه إذا ألقى أمراً علم أنه مُنفَّذ لا محالة.

وقد أشهد هود عليه السلام ربَّه سبحانه، وهو واثق من حمايته له وما كان الحق سبحانه ليرسل رسولاً ليُمكِّن منه قوماً يُزيحوه من حركة الرسالة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان هود عليه السلام:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ [(٢)] إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا [(٣)] إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ [(٤)] مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ .. ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

(٢) الدابة: اسم فاعل، وغلب على غير العاقل، ويستوى فيه المذكر والمؤنث وقد يشمل العاقل وغيره، كقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ .. ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة] تشمل الإنسان وغيره. وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت] الدابة هنا كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل كلمة ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ فالعطف يقتضى المغايرة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال] تشمل الحيوان والإنسان الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى] والدابة هنا تشمل الكائنات الحية فى الأرض والسماء، وفيها دليل على أن فى السماء كائنات حية وعاقلة. [القاموس القويم] بتصرف.

(٣) الناصية: ما يبرز من الشعر فى مقدم الرأس فوق الجبهة، ويسمى مكانه أيضاً «ناصية». وأخذ بناصية فلان: قبض عليه وسيطر عليه متمكناً منه.

وقوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا .. ﴿٥٦﴾﴾ [هود] أى: مسيطر عليها مالك أمرها متصرف فيها. وقوله تعالى: ﴿.. فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن] أى: يُجَر المجرمون من نواصيهم وأقدامهم، فتربط ناصية المجرم مع قدميه، ويؤخذ فيلقى فى النار عاجزاً مهاناً. وقوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق] مجاز مرسل علاقته الجزئية، أى: صاحبها كاذب خاطىء. [القاموس القويم].

(٤) الصراط: لغة فى السراط، وبهما قرىء - بالصاد، والسين - وهو السبيل والطريق للخير والشر. فمن الخير قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة] وقوله تعالى: ﴿.. إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود]. ومن الشر والهلاك، قوله تعالى: ﴿.. فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات] والتعبير بقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ على سبيل التهكم والسخرية. [القاموس القويم].

يعلن لهم هود عليه السلام حقيقة أنه يتوكَّل على الله تعالى الذى لا يعلوهم فقط ، ولا يرزقهم وحدهم ، بل هو الآخذ بناصية كل دابَّة تدبُّ فى الأرض ولها حرية وحركة ، والناصية هى مقدّم الرأس ، وبها خصلة من الشعر .

وحين تريد إهانة واحد فأنت تمسكه من خصلة الشعر هذه وتشدُّه منها .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ [1] فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) ﴾ [الرحمن]

وفى آية أخرى يقول الله سبحانه :

﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا [2] بِالنَّاصِيَةِ (١٥) ﴾ [العلق]

إذن : فكيف لم يجرؤ قوم عاد على أن يسلِّطوا مجموعة ثعابين ، وأعداداً من الكلاب المتوحشة - مثلاً - على سيدنا هود عليه السلام .

لم يستطيعوا ذلك ، وقد أعلن لهم سبب عجزهم عن الإضرار به حين قال لهم :

﴿ .. مَا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود]

ونحن نلحظ أنه عليه السلام قال فى صدر [3] الآية :

﴿ رَبِّي وَرَبِّكُم .. (٥٦) ﴾ ، وفى عَجُز [4] الآية قال : ﴿ .. إِنَّ رَبِّي (٥٦) ﴾ ، والسبب فى قوله : ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُم .. (٥٦) ﴾ أنهم كانوا قادحين [5] فى مسألة ربوبية الحق سبحانه .

---

(١) السيماء والسيما والسيمة : العلامة ، وسوم الشيء : أعلمه يسومه أى : بعلامة . [القاموس القويم] .

(٢) سفع بناصيته : قبض عليها فاجتذبها . أى : لنجذبنه من ناصيته إذلالاً له ، وذلك كناية عن الإذلال والقهر والإهانة . [القاموس القويم ١ / ٣١٦] .

(٣) الصدر : مقدم كل شىء وأوله . والمراد : بداية الآية الكريمة .

(٤) عجز كل شىء : مؤخره . والمراد : نهاية الآية الكريمة .

(٥) القدح فى الشىء : العيب فيه وانتقاصه . [راجع اللسان - مادة : قدح] .

لذلك قال عليه السلام فى مجال السيطرة: ﴿ربى وربكم﴾ أما فى عجز الآية فقال:

﴿.. إنَّ ربِّى علَىٰ صراطٍ مُّستقيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود]

أى: أن الإله الواحد سبحانه له مطلق العدالة ، ولم يأت هنا بشىء يخصُّ أربابهم ؛ لأنه هنا يتحدث عن مطلق عدالة الحق سبحانه.

والحق سبحانه وتعالى على صراط مستقيم فى منتهى قُدرته ، وقَهْره وسيطرته ، ولا شىء يُفلت منه ، ومع كل قدرة الله تعالى اللامتناهية فهو لا يستعمل قهره فى الظلم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا[1] فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ[2] ﴿٥٧﴾﴾

الفعل « تولَّوا » أصله : « تتولَّوا » ، وفى اللغة : إذا ابتدأ فعل بتاءين يُقتصَر على تاء واحدة .

وهكذا يكون المعنى :

إن تتولَّوا فقد أبلغتكم المنهج الذى أرسلت به إليكم ، ولا عُذر لكم عندى ؛ لأن الحق سبحانه لا يعذِّب قوماً وهم غافلون ؛ لذلك أرسلنى إليكم.

(١) ولى عن الشىء: انصرف عنه ، أو أعرض عنه. وقال تعالى: ﴿.. ولَّوْا علَىٰ أدبارهم نفورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء] أى: أعرضوا. وقال تعالى: ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولَّوْا فإنما عليك البلاغ .. ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران]. [القاموس القويم].

(٢) حفيظ: من أسماء الله الحسنى. والحفيظ: الحافظ الأمين الذى يحفظ عباده ويحميهم. قال تعالى: ﴿.. وربُّك علَىٰ كلِّ شىءٍ حفيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ] [القاموس القويم - بتصرف].

أو أن الخطاب من الله سبحانه لهود عليه السلام ليبيِّن له : فإن تولَّوا فقل لهم : ﴿ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ .. (٥٧) ﴾ [هود]

والاستخلاف أن يوجد قوم خلفاء [1] لقوم ، إما أن يكونوا عادلين ؛ فلا يقفوا من المناهج ولا من الرسالات مثلما وقف قوم عاد .

وإما أن يكونوا غير عادلين ، مثل من قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ..(٥٩) ﴾[مريم]

والحق سبحانه قد وعد المؤمنين وعداً طيِّباً :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ..(٥٥) ﴾ [النور]

إذن : فالاستخلاف إما أن يكون الخلف فيه صاحب عمل صالح ، أو أن يبدد المنهج فلا يتبعه ، بل يتبع الشهوات .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً .. (٥٧) ﴾ [هود]

---

(١) خلفه يخلفه من باب نصر : جاء بعده فصار مكانه . والخلف القرن من الناس أى الجيل بعد الجيل . والخلف الولد قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ .. (٥٩) ﴾ [مريم] والخليفة من يخلف غيره وجمعها خلفاء وخلائف ، يقول الحق : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٦٩) ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ .. (٣٩) ﴾ [فاطر] [القاموس القويم صـ٢٠٣ ، ٢٠٤ جـ١]

لأن المنهج الذى نزل على الخَلْق ، أنزله الحق سبحانه وتعالى لصلاح العباد ، وهو سبحانه خَلَق أولاً بكل صفات الكمال فيه ، ولن يزيده العباد وصفاً من الأوصاف ، ولن يسلبه أحد وصفاً من الأوصاف [1] .

ولذلك نقول للمتمردين على عبوديتهم لله كفراً ، وللمتمردين على المنهج بالمعصية :

أنتم ألفتم التمرد ؛ إما التمرد فى القمة وهو الكفر بالله ، وإما التمرد على أحكام الله بمخالفتها ، فلماذا لا يتمرد أحدكم على المرض ، ويقول : « لن أمرض »؟ ولماذا لا يتمرد أحدكم على الموت ويرفض أن يموت؟

إذن : فما دُمْتَ قد عرفت التمرد فيما لك فيه اختيار ، فهل تستطيع التمرد على أحكام الله القهرية فيك ؟

إنك لن تستطيع ؛ لأنك مأخوذ بناصيتك . والحق سبحانه إن شاء أن يوقف القلب ، فلن تستطيع أن تأمر قلبك بعدم بالتوقف .

لذلك قال هود عليه السلام :

﴿ .. وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [هود]

فالله سبحانه رقيب ؛ لأنه قيوم قائم على كل أمور كونه .

وبعض الفلاسفة قالوا : إن الله قد خلق الكون ، وخلق النواميس [2] والقوانين ، ثم تركها تقوم بعملها .

---

(١) يقول رب العزة فى الحديث القدسى : «يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى . ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

(٢) النواميس : القوانين الإلهية التى يخضع لها الكون .

ولهؤلاء نقول: لا؛ فأنتم أقررتم بصفات الخالق القادر، فأين صفات القيومية لله القائم على كل نفس بما كسبت، وهو سبحانه القائل لعبيده عن نفسه:

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ[1] وَلَا نَوْمٌ ..(٢٥٥)﴾ [البقرة]

وهو سبحانه حين يقول هذا إنما يطمئن العباد؛ ليناموا ويرتاحوا؛ لأنه سبحانه مُنزَّه عن الغَفْلة أو النوم، بل هو سبحانه قيوم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[2] (٥٨)﴾

وساعة تسمع ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فأنت تعرف أن هناك آمراً وأمراً مُطاعاً، وبمجرد صدور الأمر من الآمر سبحانه يكون التنفيذ؛ لأنه يأمر مَنْ له قدرة على التنفيذ.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[3] (٢)﴾ [الانشقاق]

إذن: فهي بمجرد السمع نَفَّذت أمر الحق سبحانه.

---

(١) السنة: النعاس وهو أول النوم. والنعاس ما كان من العين، فإذا صار في القلب صار نوماً. وقد فرَّق المفضل الضبي بينهما فقال: السنة من الرأس، والنعاس فى العين، والنوم فى القلب. [راجع تفسير القرطبى ٢/ ١١٩٦].

(٢) عذاب غليظ: أى: كبير كثير شديد صعب. [القاموس القويم].

(٣) حق له (بالبناء للمجهول): أثبت له. قال تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)﴾ [الانشقاق] أى: كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله. [القاموس القويم].

وحين شاء الحق سبحانه أن يُنجى موسى عليه السلام من الذبح الذى أمر به فرعون ؛ أوحى الله سبحانه لأمٍّ موسى قائلاً:

﴿ .. فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ [1] وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

وكيف تفعل أمٌّ ذلك؟

إن كل أمٍّ إنما تحرص على ابنها ؛ والذبح لموسى أمر مظنون ، والإلقاء فى البحر موت محقَّق [2] ، لكن أم موسى استقبلت الوحى ؛ ولم تتردد ؛ مما يدل على أنها لم تُناقش الأمر بمقاييس البشر ، بل بتنفيذ إلهامٍ واردٍ إليها من الله سبحانه ؛ إلهام لا ينازعه شكٌّ أو شيطان.

وبعد ذلك يأمر الله سبحانه البحر :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [3] .. (٣٩) ﴾ [طه]

وقد استقبل البحرُ الأمرَ الإلهى ؛ لأنه أمر من قادر على الإنفاذ ، كما قام بتنفيذ الضد .

فى قصة نوح عليه السلام قال الحق سبحانه :

---

(١) اليم : البحر أو النهر العذب . وقد ورد المعنيان فى القرآن ، فقال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] ، وهو خليج السويس وماؤه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر .
وقال تعالى لموسى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه] فاليم هنا هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم].

(٢) « أم موسى عاشت فى خوف مظنون مصحوب بقلق ، فقد يحدث وقد لا يحدث ، كما عاشت فى خوف محقق وهو إلقاء ابنها فى البحر ، فالبحر يعنى الغرق . . ولكن جانب الإلهام جعلها تستقبل الخوف المحقق بالإيمان التقى ، فالبحر استقبله ، والموج يداعبه ، والشاطىء يقبله ، والعدو يربيه ، وعين الله ترعاه .

(٣) الساحل : شاطىء النهر ؛ لأن الموج يأكل منه وينحته ويسحته . قال تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه] أى : بشاطىء النهر . [القاموس القويم].

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ..(٤٠)﴾ [هود]

وحدث الطوفان ؛ ليغرق الكافرين.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ..(٥٨)﴾ [هود]

يعنى : مجيء الأمر بالعذاب للمخالفين لدعوة هود عليه السلام ، وقد تحقَّق هذا العذاب بطريقة خاصة ودقيقة ؛ تتناسب فى دقتها مع عظمة الآمر بها سبحانه وتعالى.

فحين تأتى رِيحٌ صَرْصَرٌ [1] أو صَيحةٌ طاغيةٌ ، فهذا العذاب من خارجهم ، وما دام العذاب من الخارج ، وبقوة من قوى الطبيعة الصادرة بتوجيه الله ؛ فقد يَعُمُّ المكذِّبين لسيدنا هود ، ومعهم المصدِّقون به وبرسالته ، فكيف يتأتَّى أن تذهب الصيحة إلى آذان المكذِّبين فقط ، وتخرق تلك الآذان ؛ وتترك آذان المؤمنين ؟

إنها قدرة التقدير لا قوة التدمير .

إن مُوجِّه الصيحة قد حدَّد لها مَنْ تُصيب ومن تترك ، وهى صيحة موجَّهة ، مثلها مثل حجارة سجِّيل [2] التى رمتها طير أبابيل [3] على أبرهة الحبشى وجنوده ؛ مع نجاةِ جنود قريش بنفس الحجارة ؛ ولم تكن إصابة بالطاعون كما ادَّعى بعضٌ من المتفلسفين.

---

(١) الصِّرّ : البرد الشديد . قال تعالى : ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ..(١١٧)﴾ [آل عمران] . وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة] [القاموس القويم].

(٢) السجِّيل : الطين المتحجِّر . قال تعالى : ﴿.. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢)﴾ [هود] وقال تعالى : ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤)﴾ [الفيل] [القاموس القويم].

(٣) أبابيل : جماعات متفرقة لا واحد لها من لفظها ، وهى تفيد الكثرة . قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣)﴾ [الفيل] [القاموس القويم] .

وهذه من أسرار عظمة الحق سبحانه فهو يأخذ بشيء واحد؛ ولكنه ينُجي المؤمن؛ ويعذِّب الكافر؛ فلا يوجد ناموس يحكم الكون بدون قدرة مسيطرة عليه.

يقول المتنبي[1]:

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ منَّا بيضَ أوجُهنا وَمَا تُسوِّدُ بيضَ العَينِ والَّلمَمِ

وكَانَ حَالُهُما في الحُكْمِ واحدَةً لَو احتَكَمْنَا منَ الدُّنْيَا إلَى حَكَمِ[2]

وهكذا يضرب المتنبي المثل بأن جلوس الواحد منا في الشمس؛ يجعل بشرة الأبيض تميل إلى السمرة ولا تسود بياض الشعر، لكنك إن تركت شيئاً أسود في الشمس فترة لوجدته يميل إلى الأبيض؛ ويحدث ذلك رغم أن الفاعل واحد؛ لكن القابل مختلف.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا .. (٥٨) ﴾ [هود]

فلا تقل كيف نجوا من العذاب الجامع والعذاب العام؛ لأن هذه هي الرحمة.

والرحمة - كما نعلم - هي ألا يمس الداء الإنسان من أول الأمر؛ أما الشفاء فهو يعالج الداء.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

---

(١) هو: أبو الطيب أحمد بن الحسين، شاعر حكيم، ولد بالكوفة في محلة تسمى «كندة» عام ٣٠٣ هـ، نشأ بالشام، ادعى النبوة في بادية السماوة (بين الكوفة والشام)، ولذلك سمي بالمتنبي، ثم رجع عن دعواه بعد أسره، توفي عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً. (الأعلام لخير الدين الزركلي).

(٢) المتنبي رغم أنه أديب له قدرة على إدارة المعاني، فقد تعرض لحقيقة علمية يؤخذ منها الأسرار الخفية، التي تجعل العقل مختاراً بتوحيد لقدرة الله سبحانه.

ونحن نلحظ هنا أن الحق سبحانه يذكر فى نفس الآية الكريمة نجاتين:

النجاة الأولى : من العذاب الجامع ؛ الريح الصرصر ؛ من الصيحة ؛ من الطاغية ، يقول سبحانه:

﴿ .. نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) ﴾ [هود]

والنجاة الثانية : هى نجاة من عذاب الآخرة الغليظ ، فعذاب الدنيا رغم قسوته ، إلا أنه موقوت بعمر الدنيا.

أما عذاب الآخرة فهو عذاب بلا نهاية، ووصفه الحق سبحانه بالغلظة.

وغلظ الشيء يعطى له القوة والمتانة ، وهو عذاب غليظ على قدر ما يستوعب الحكم.

ولذلك حينما يُملِّك الحقُّ سبحانه رجلاً بُضْع [١] امرأة بعقد الزواج ، ويصف ذلك بالميثاق الغليظ ، والنفعية هنا متصلة بالعفة والعرْض ، ولم يُملِّك الرجل النفعية المطلقة من المرأة [٢] التى يتزوجها ؛ فالزوجَ يُمكَّن من عورة زوجته بعقد الزواج.

يقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا [٣] (٢١) ﴾ [النساء]

وكانت نجاة هود عليه السلام والمؤمنين معه من العذاب الأول مقدمة للنجاة من العذاب الغليظ.

---

(١) البضع : النكاح والجماع، والمباضعة : المجامعة ومباشرة الرجل للمرأة. [لسان العرب - مادة : بضع].

(٢) فللمرأة - مثلاً - ذمة مالية خاصة بها، ليس من حق زوجها الاستيلاء على مالها، أو التدخل فى كيفية استثماره إلا بعد موافقتها بإرادتها الحرة.

(٣) ميثاقاً غليظاً : أى : عظيماً كبير الشأن، هو ميثاق الزواج. [القاموس القويم].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ[1] وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ[2] وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[3] (٥٩) ﴾

و«تلك» إشارة إلى المكان الذى عاش فيه قوم عاد ؛ لأن الإشارة هنا لمؤنث ، ولنتذكر أن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

وهكذا فصل بين «عاد» المكان ، و«عاد» المكين ، وهم قوم عاد ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (٥٩) ﴾ فهم قد ذهبوا وبقيت آثارهم .

و«عاد» إما أن تطلق على المكان والمحل ، وإما أن تطلق على الذوات التى عاشت فى المكان ، فإذا أشار سبحانه بـ ﴿تلك﴾ فهى إشارة إلى الديار ، والديار لم تجحد بآيات الله ؛ ولذلك جاء بعدها بقوله تعالى :

﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (٥٩) ﴾ [هود]

والجحود هو النكران مع قوة الحجة والبرهان .

والآيات - كما نعلم - جمع آية ، وهى الأمور العجيبة الملفتة للنظر التفاتاً يوحى بإيمان بما تنص عليه .

---

(١) جحد الحق يجحده جحوداً : أنكره ، وهو يعلمه . وجحد النعمة : أنكرها ولم يشكرها . وجحد الآية : كفر بها . قال تعالى : ﴿ .. وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم] .

(٢) جاءت (رسله) هنا بصيغة الجمع ، لا المفرد . قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٧٣) : «يعنى هوداً وحده ، لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ .. (٥١) ﴾ [المؤمنون] . يعنى : النبى ﷺ ، لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه ، وإنما جمع هذا لأن من كذب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هوداً والرسل قبله ، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل» .

(٣) الجبار : المتكبر . والعنيد : الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . [تفسير القرطبى ٤/ ٣٣٧٣] .

ومن الآيات ما يدل على قمة العقيدة ، وهو الإيمان بواجب الوجود ؛ بالله الرب الخالق الحكيم القادر سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر ، ورؤية الأرض خاشعة إلى آخر تلك الآيات التى فى القمة .

وكذلك هناك آيات أخرى تأتى مصدقة لمن يخبر أنه جاء رسولاً من عند الله تعالى ، وهى المعجزات .

وآيات أخرى فيها الأحكام التى يريدها الله سبحانه بمنهجه لضمان صحة حركة الحياة فى خلقه .

وقوم عاد جحدوا بكل هذه الآيات ؛ جحدوا الإيمان ، وجحدوا تصديق الرسول بالمعجزة ، وأهملوا وتركوا منهج الله جحوداً بإعراض [1] .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ .. (٥٩) ﴾ [هود]

وهود عليه السلام هو الذى أرسله الحق سبحانه إلى قوم عاد ، فهل هو المعنىُّ بالعصيان هنا ؟

نقول : لا ؛ لأن الله عز وجل قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ [2] النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ .. (٨١) ﴾ [آل عمران]

إذن : فكل أمة من الأمم عندها بلاغ من رسولها بأن تصدق أخبار كل رسول يُرسَل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) الجحود لا يتأتى إلا عند إغلاق القلب وشرود الفكر وضعف النفس .

(٢) الميثاق والموثق : العهد المؤكد . قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. (٧) ﴾ [المائدة] أى : عهده الذى عاهدكم عليه وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/ ٣١٩] .

﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ... (٢٨٥) ﴾ [البقرة]

فهم قد انقسموا إلى قسمين ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ .. وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ [1] (٥٩) ﴾ [هود]

أى : أن هناك مُتَّبِعاً ، ومُتَّبَعاً .

والمقصود بالجبار العنيد هم قمم المجتمع ، سادة الطغيان والصنف الثانى هم من اتبعوا الجبابرة .

ومن رحمته سبحانه أنه حين يتكلم عن الفرَق الضالة ، فهو يتكلم أيضاً عن الفرق المضلة ، فهناك ضالٌّ فى ذاته ، وهناك مُضلٌّ لغيره .

والمضل لغيره عليه وزران [2] : وزر ضلاله فى ذاته ، ووزر إضلال غيره [3] .

أما الذين اتُّبعوا فلهم بعض العذر ؛ لأنهم اتُّبعوا بالجبروت والقهر ، لا بالإقناع والبينة .

---

(١) العنيد : صيغة مبالغة ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾ [إبراهيم] القاموس القويم صـ ٣٩٠ جـ ٢

(٢) الوزر : الحمل الثقيل والذنب ، وجزاء الذنب وعقوبته ، والهم والكرب . قال تعالى: ﴿ ... فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) ﴾ [طه] أى : حملاً ثقيلاً هو ذنبه أو جزاء ذنبه . وقوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) ﴾ [الشرح] أى : همك الذى أتعبك وهو هم البحث عن الدين الحق ، فلما جاءته الرسالة زالت هموم نفسه وبدأ يعمل للإسلام فى نشاط وهمة لا يحمل إلا هم أمته ، أو يكون الوزر هو الذنب الذى كنت تراه ذنباً لشدة حبك لله وخوفك إياه ، وقد وضعه عنك وغفره لك . قال تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. (٢) ﴾ [الفتح] فالرسول ﷺ يرى الهفوات الصغيرة ذنوباً كبيرة فوضعها الله عنه بالمغفرة . [القاموس القويم ٢ / ٣٢٣].

(٣) قال تعالى عن الذين يضلون غيرهم : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ [النحل] ، وقال تعالى عن الكافرين : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبوت] والأثقال هى الذنوب ، ويحملون أثقال من أضلوهم فاتبعوهم فى ضلالهم [راجع : القاموس القويم ، مادة ثقل].